المحاضرة الحادية والعشرون

فلسفة المتنبي

- ١٣ -

عملنا بطائفة من اخبار المتنبيء وأحطنا بشيء من جملة اخلاقه وروحه وطبيعة حسه وعاطفته ، بقي ان نعرف درجة عبقريته وخصائص هذه العبقرية ، هل يخلد شعر المتنبيء ما هو السر في خلوده . وقبل ان أتفرغ لهذا كله ارى ان الواجب عليّ ان انظر في فلسفة المتنبيء .

اشار القاضي الجرجاني والثعالبي الى ان اباالطيب خرج عن رسم الشعر الى طريق الفلسفة واضاف الثعالبي الى هذا الكلام ان المتنبيء امتثل الفاظ المتصوفة واستعمل كلماتهم المعقدة ومعانيهم المغلقة فمنه قوله :

نحنُ من ضايق الزمان له فيك وخانته قربك الايام

حتى قال الصاحب « ولو وقع هذا القول في عبارات الجنيد والشبلي لتنازعه المتصوفة دهراً طويلاً »

ومنه قوله :

يا ايها الملك المصفى جوهراً من ذات ذي الملكوت اسمى من سما
نور تظاهر فيك لاهوتيّه فتكاد تعلم علم ما لن يعلما

ومنه قوله :

ولقد رمت بالسعادة بعضاً من نفوس العدي فادركت كلا

فالجوهر المصفى واللاهوت والبعض والكل من الفاظ رجال الفلسفة والمنطق .

ولمّح الى طائفة من اسماء اطباء اليونانيين وحكمائهم امثال جالينوس وبقراط ورسطاليس وبطليموس .

وجرى في شعره ذكر بعض المذاهب الفلسفية .

من هذه المذاهب :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر ان المانوية تكذب

ومنها :

الا فتى يورد الهندي هامتـه كيما تزول شكوك الناس والتهم
فانه حجة يؤذي القلوب بهـا من دينه الدهر والتعطيل والقدم

ومنها :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم الا على شجب والخلف في الشجب
فقيـل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب
ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب

واظن ان شيوخ ابن خلدون لم يعيبوا شعر المتنبي بمخالفته الاساليب العربية الا بسبب لجوئه الى هذه المصطلحات الفلسفية واشباهها لان الشعر كما قلت في « سحر العبقرية » غرضه ان يعرض الفكر في معرض ظاهر فهو يتحامى التجريدات وعبارات العلم واستدلالات الفلسفة التي هي من خصائص النثر فهي تجعل الشعر في عالم يختلف عن عالم الخيال وعالم الصيغ المحسوسة ولكنكم ستجدون في فصل الكلام على شعر المتنبي ان ابا الطيب اذا خلد فان خلوده سيكون من الناحية التي عابه بها شيوخ ابن خلدون، فاذا خلد المتنبي فان الذي يخلده انما هي تلك الحكم الرائعة التي استفاضت في شعره فاستشهد الناس بها بحسب ما يقتضيه مقام الاستشهاد فكأن ابا الطيب لسان حال البشر باجمعهم . فقد يقذف المتنبي في بيت او في بيتين مذهبا فلسفيا او علميا يشتغل به المفكرون كل حياتهم من هذه المذاهب قوله :

فقل ما يلوم في ثوبه الا الذي يلوم في غرسه
من وجد المذهب عن قدره لم يجد المذهب عن نفسه

ومنها :

راعتك رائعة البياض بمفرقي ولو انها الاولى لراع الاسحم

ومعنى هذا البيت : راعتك الشعرة البيضاء التي ظهرت في رأسي ولو ان الشعر يكون أبيض في اول امره ثم يسود لراعك الشعر الاسود ، فكأنما ابو الطيب أراد ان يمثل للناس على نحو (بيرون) في القديم ان آراء الخلق سريعة التبدل والتغير مما يدل على شك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الناس في حقائق الامور ، اعتاد البشر ان يروا الحسن في الشعر الاسود والقبح في الشعر الابيض ولو تعودوا ان يروا المحاسن في الشعرة البيضاء والمساوئ في الشعرة السوداء لما كان لاشتعال الرأس شيباً اثر شنيع في العيون فكأنما لا حقائق مطلقة في العالم وانما الحقائق نسبية للامر الواحد كما قال « اناتول فرانس » مشاهد متفاوتة ومظاهر متباينة ، انظر الى هرم منفيس في طلوع الشمس ثم انظر اليه في غروبها فانك تجده في الصباح مخروط الشكل ينبسط عليه ضياء وردي ، وتجده في المساء مثلثاً اسود اللون ومن الذي ينفذ فكره الى مادة هذا الهرم فالعادة والمصطلح هما سبب كل عمل في هذه الدنيا .

قد تكثر هذه النظرات الفلسفية في شعر المتنبي ولكني أمر بها كما مر بها ابو الطيب نفسه لانها لا تؤلف الفلسفة التي أريد الكلام عليها ، اي لا تؤلف فلسفة المتنبي ، وانما هي خطرات قد يجوز ان يكون اقتبسها من الكتب المترجمة او دأه عليها عقله الكبير فلم يتوسع فيها وانما الذي توسع فيه النظر في الحياة واخلاق اصحاب هذه الحياة فلننظر في صورة الحياة التي يريدها ابو الطيب .

صوّر ابو الطيب المتنبي الحياة في شعره في اشرف صورها وعرضها في اكرم معارضها فهو يريدها سالمة من كل ضيم ، بعيدة عن كل ذل فلا تجدون في شعره الا الفاظ العز والمجد والكرامة وما تقتضيه هذه الالفاظ من تعب الاجسام وسفك الدماء ، فالمعالي لا تكون رخيصة فلا بد من ابر النحل دون الشهد ، ولا بد من مرارة الزمان دون حلاوته ، ليس الفقر ان تغث الما كل انما الفقر ان تغث الكرامة ، فلا تكاد عيشة العز تفارق صورها شعره ، وان كان هذا العز في جهنم وان كان الذل في جنات الخلود ، على م نخاف الموت فقد يقتل العاجز وهو آمن في سربه ، وقد يوفّى الشجاع وهو غارق في الدماء ، على م نخاف الموت والموت لا بد منه وسواء أأفرط الرجل في سلمه ام أفرط في حربه ، ان غايته الموت فاذا كان الموت غاية كل واحد فلم تخفق الافئدة من الرعب فالحتف في العز محبوب والذل في طول العمر بغيض .

صوّر الحياة في اكمل صورها ، ينبغي للناس ان يهون عليهم رزء جسومهم اذا سلمت في هذا الرزء عقولهم واعراضهم لا تحتمل الاذى ، لا تغبط الذليل ، لا تهن . هذه هي الوصايا التي لم يخل منها شعره ، دع نفسك تأخذ ما يمكنها اخذه من هذه الدنيا ، ولكن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لاتحسبن هذا الاخذ في زق اوقينة ، فما المجد الا السيف والفتكة البكر ، ما المجد الا ضرب أعناق الملوك وترك دوي في الدنيا ، اسع الى المجد ما استطعت اليه سبيلاً ، اطلب المال في المجد ، اطلب المجد في المال ، خلف ذكراً طيباً فالذكر عمر ثان ، اكسب هذا المجد من مضارب السيف ومن سنان الرمح ، قاتل في سبيل العلى ، قاتل في سبيل السلم ، السعادة في سفك الدماء ، ابن الممالك على الاسل ، سلم شرفك من الاذى باراقة الدم على جوانبه ، اطلب حقك بالطعن بالضرب ، الدنيا نزاع ، والدنيا لمن غلب ومن استطاع ان يلتمس الاشياء اغتصاباً لم يلتمسها سؤالاً ، اذا غامرت في شرف فلا تقنع بما دون النجوم فالموت واحد في عظائم الامور وفي صغائرها ، لا تتعلل بالآمال ، لا تقنع بالاقلال ، لا تسكر فمعاطاة الصغائر والعوالي الذ من المدام ، الموت في الوغى عيش ، لا تداج ، لا تقصر في امرك ، لا تعجز ، لا تتكل على احد ، اياك والنقص اذا كنت قادراً على التمام ، جالس كتبك فان الكتاب خير جليس ، اكرم الكريم فتملكه ، لا تكرم اللئيم فتتمرد ، احرص على الحياة فان الحياة شهية واحرص على اللذات ، لتكن في حرصك على هذه الحياة وعلى هذه اللذات مجللاً مكرما ، اياك والغواني فانهن ضياء في بواطنه ظلام ، لا عهد لهن ، يحقدن فلا يبقى في قلبهن رضى و يرضين فلا يبقى في قلبهن حقد . هذه هي الحياة التي يريدها المتنبيء ، انها لحياة سامية ولكنها ممزوجة بالدم ، بعيدة عن الهدوء والسكينة ، مملوءة بالقلق والاضطراب ، كلها نزاع ، وكلها غلاب ، وهل الدنيا الا غلاب . ان الحياة التي يريدها ابو الطيب انما هي حياة القوة وهل يكون عزيز الجانب غير القوي ، قاتل ، غالب ، هذا هو الهدف الاعلى الذي يرمي اليه المتنبيء ، وقد قاتل وغالب كل حياته ، فما كانت فلسفته الا بنت خلقه وطبعه ، جمعت هذه الفلسفة بين سلطان المادة وكرامة الادب ، فلا خير في المال اذا لم يزينه المجد ولا خير في المجد اذا لم يؤيده المال . وهل نكسب هذا المجد الا بعد ازعاج البدن واقلاق الروح . وهل نصل الى هذا المال الا بعد ذوق مرارة الموت ولكن حلاوة هذا المجد وهذا الموت تنسينا مرارة الايام التي انقضت في كسب المجد والمال .

هذه هي الحياة التي يريدها ابو الطيب ومن كان نظره في الحياة مثل نظر ابي الطيب فأخلق به ان يكون متشائماً لان المجد والعز والكرامة كل هذا يقتضي مكارم الاخلاق واين مكارم الأخلاق في زمن لا صديق فيه مخلص ولا عدو مداج اين مكارم الاخلاق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في زمن ودّ الناس فيه خداع ودينهم نفاق عالمهم فدم وحازمهم وغد وبصيرهم اعمى وشجاعهم قرد بلي المتنبيء بهم بلاء الورد بانوف لا يصلح لها الخشاش ليس من العجب ان يكون المتنبيء متشائماً اذا كان في زمن وقته فيه ضائع ليس من العجب ان يحذر الناس انهم لا يرحمون فلا ترحمهم روّ رمحك من دمائهم اقتلهم ولا اثم عليك ليس من العجب ان يرى ابو الطيب الدهر غير اهل ان تؤمل عنده حياة وان يشتاق فيه الى النسل .

من مزاجه السوبداوي ومن شبابه المضطرب ، واكتهاله القلق ، ومن فرط حسه وعصبيته ، ومن الذي لاقاه في زمنه من الحسد تولد شيء من التشاؤم في خلق المتنبيء ، والتشاؤم كما قال فيه الاستاذ «فاكه» مرض خلقي لا يحرم صاحبه العبقرية على شرط ان يكون المصاب به حاصلاً على النصف الآخر من هذه العبقرية وهو الخيال المديد .

ماهو التشاؤم ؟ ان هو الا ادراك الحياة من أوسع جوانبها ، ومن اشد نواحيها ظلمة ، واذا لم يكن هذا التشاؤم صادقاً كان ضرباً من السخرية ، واذا كان صادقاً ولم يكن لصاحبه عقل كبير كان نوعاً من الهزء ، لانه قد يفضي بالمبتلي به الى الشكوى من آلام حقيرة يقاسيها كل الناس ، ولكن تشاؤم رجل مثل ابي الطيب صاحب عقل كبير وخيال مديد ليس فيه شيء من المهزلة .

وعن هذا التشاؤم وعن هذا الالم الذي قاساه المتنبيء كل حياته صدرت افكار سامية من جملة هذه الافكار : العبقرية تجعل صاحبها في شقاوة :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله واخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ما أصدق هذه الحكمة ! لنبحث عنها قليلا :

مَلِك السيارات في هذا العصر (فورد) ذهب اسم سيارته في آفاق العالم كله : يكاد فورد يستصفي ثروة الدنيا فهو يلعب بالذهب لعب ، انه ليستطيع ان يدرك امانيه كلها بالمال فلا يشك احد في عظم سلطانه ، فقد اذعنت له الدنيا بجذافيرها . ومَلِك العلم في هذا العصر (اديسون) لقد أدهش العالم كله بمخترعاته ، فقد ضبط أصوات البشر وقرّب بين متباعد المسافات بعد ان قاوم الطبيعة فهو يجد في معمله اكبر لذة يجدها عالم في اكتشاف شيء ، يعترف بسلطانه العلماء بمجامعهم . لاريب في ان (فورد) و(اديسون) من ذوي العقول الذين أشار اليهم المتنبيء في شعره ، فهل شقيا في نعيمها كما قال المتنبيء ، ام هما نعما على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خلاف رأي ابي الطيب ، لننظر الى رأي كل منهما في سعادة الآخر .

يقول (اديسون) في سعادة (فورد) :

رأيت حديثاً كيف ركبت آلات آخر سيارة من سيارات (فورد) لقد رمى بسيارته هذه الى انحاء العالم ، وقد وفق في مخترعه توفيقاً عظيماً ، فكان يجب على فورد ان يكون سعيداً كل ايامه بسبب توفيقه هذا ، ومن موجب الأسف ليس له شيء من هذه السعادة ان (فورد) سيكون سعيداً زمناً قليلاً لانه من هؤلاء الرجال الذين لا يدوم سرورهم طويلاً ان عقله ليعذبه في كل حين لان هذا العقل تشغله امور حديثة لاحد لها ، فاذا تم له امر منها فرح به ، ثم فكر في امر آخر وعلى هذا فانه يجري من ارب الى ارب من غير ان يكون راضياً .

فاذا لم يستطع الرجال ان يحددوا مطامعهم فانهم لا يستطيعون ان يكونوا سعداء فالذي يجدر بنا ان نحسدهم في هذه الحياة انما هم الرجال الذين أبعد همهم ان يقبضوا على فراشة ، أسعد الناس انما هو العبد الذي يعيش وليس في قلبه مطمع من المطامع .

يظن بعضهم ان المستر (كولديج) كان سعيداً وهذا خطأ فقد قضيت عنده بضعة أيام فكان كل همه ان يتولى رئاسة الجمهورية فلما ألقيت اليه مقاليد هذه الرئاسة كان كل همه ان يخرج منها وان يغادر القصر الأبيض خوفاً من تبعاته .

اما انا فقد كان أعذب ايامي تلك الايام التي كان عمري فيها اثني عشر عاماً فلم يكن لي فيها مطمع او هم ولكني لما كبرت أضعت السعادة فاذا رميت بنظري الى الاثنين والثمانين عاماً التي عشتها وجدت فيها اياماً كنت أستطيع ان اكون في خلالها سعيداً كل السعيد غير اني كنت فيها أشقى الأشقياء .

و يقول (فورد) في سعادة (اديسون) :

أرى (اديسون) يعد عدة السعادة الكاملة لانه غارق في مشاغله فليس به حاجة الى ان يجعل الشغل واسطة العيش وهنا السعادة كلها على خلاف ما كان يذكره العالم الكبير من انه لا سعادة في هذه الدنيا ، كان سعيداً في طفولته وشبيبته فقد كان عاملاً في البرق والصحافة وصار عالماً في شبابه ، صاحب مكتشفات عظيمة ، حصلت له اسباب العمل في كل حين ، فقد أراد ان يجعل الليل نهاراً فكتب له التوفيق ، وشاء ان يردد اصداء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الصوت البشري فتمت مشيئته ، لقد وجد لذته كلها في هذا الجهد العظيم ، لان الرجل الذي يعمل من اجل غايات شريفة ، ان الرجل الذي يعمل من اجل العمل نفسه ، انما هو سعيد كل السعيد .

فاذا كان (فورد) يغبط اديسون بطراز حياته ، وهو من هو في الثروة ، واذا لم يكن (اديسون) سعيداً في ايامه وهو من هو في العلم ، فما أصدق ماقاله المتنبيء من ان صاحب العقل يشقى بسبب عقله في النعيم ، وان اخا الجهالة بنعم في شقاوته .

وانكم لتجدون في شعر المتنبيء كثيراً من أشباه هذه الحكمة الرائعة استنبطها من الحياة نفسها ، فكأن الحياة قد عرضت عليه صورها المختلفة وأشكالها المتباينة فاستنبط من خيرها وشرها ومن حلاوتها ومرارتها ومن كرمها ولؤمها امثالاً قذفها في أبيات وانصاف أبيات ، فالرجل قد جرّب كثيراً حتى احكمته التجارب وتغلغل في بواطن القلوب فأعطته مقاليد أسرارها ، فلا يكاد يحدث حادث في هذه الحياة الا ونجد في شعر ابي الطيب ما يمثل هذا الحادث ، فما أقرب الحكمة من طرف لسانه ، وما أجراها على شق قلمه ، والحكمة اذا كانت بنت التجارب كانت أعلق بالأذهان ، وأسير في الايام ، والمتنبي ابن التجارب :

اذا ما الناس جربهم لبيب فاني قد أكلتهم وذاقا

دمشق : ١٧ أيار سنة ١٩٣٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net